

حافظ إبراهيم

المديح في شعره

بفلم مسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

في أوائل هذا القرن ظهر في عالم الأدب شاعر كان ملء الأسماع، أسماع الخاصة والعامة في مصر، هو المرحوم حافظ إبراهيم، في وقت كانت مصر قد أفادت من صدمة الثورة العراقية وتناجها، وتطلعت إلى العزة القومية واستعادة الجند المسلوب، واحتاجت وطنيتها إلى شاعر يضرب على أوتار القلوب فيحركها، ينزل من سماء الشعراء إلى أرض الشعب، فقد كان شعر البارودي شخصياً، لا يفهمه ويتعاق به إلا الخاصة من الأدباء، وشعر شوقي تياها في أودية الخيال متعالياً على أذهان العامة، دائراً في محيط خاض اقتضته صلته بالأمير واختصاصه به، فأرادت الطبيعة أن تنضج حافظاً ليكون شاعر الشعب المكوم. وأن تحرمه حنو الآباء والأمهات ليقوى إحساسه بالآلم وليكون سريع الإجابة حين تلم بيلاده مدلهات الخطوب، ثم أرادت أن تحصن بؤسه من نعومة العيش إذ أن مصر في حاجة إلى نغمات قيثارتها الحزينة تارة. الحماسية تارة أخرى. ويشاء القدر أن يحرمه وظيفة الحكومة مع شدة تطلعه إليها، ومع أن زملاءه الضباط الذين عصوا في السودان ألحقوا بوظائف الحكومة فكان لله مشيئة أن يظل حافظ مغذياً للروح المصرية، معرباً عن الأحداث القومية، حافزاً الشعب إلى النهوض، وبخاصة من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١١ حين لحق بدار الكتب المصرية موضوعي المديح في شعر حافظ، ولكنني أريد قبل أن أخوض فيه أن أقيد النتائج التي استنبطتها من قراءتي شعر حافظ أياماً طوالاً

أولاً: يمتاز شعره بكثرة الاستشهاد بالحوادث التاريخية والقضايا الفلسفية، بما يدل أن حافظاً كان واسع الاطلاع في التاريخ والأدب، وتغلب عليه هذه

النزعة في أكثر شعره، وحوادث التاريخ بارزة في نواح كثيرة من قصائده الكبرى؛ وكأنه كان يعتبر الحوادث التاريخية والأحداث السياسية عنصراً مكملاً لكل قصيدة، فيسرف في ذلك إسرافاً شديداً

ثانياً: يرى القارىء لشعره أن الروح الحزينة سارية في نواحيه المختلفة من مدح ورناء ووصف ووطنيات، وذلك من آثار يتمه وفقره في أول حياته، ثم عكوفه على قراءة لزوميات أبي العلاء المعرى وموافقة فلسفته المتشائمة لظروف حياة حافظ التعسة، وكان من أثر ذلك تفجعه على الموتى من أصدقائه كأنه سيلحق بهم سريعاً، وفي ذلك يقول:

شاهدت مصرع أترابى فبشرنى بضجة عندها روحى وربحائى
إذا تصفحت إديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى
وقد امتزج تبرمه بالدنيا بالسياسة المصرية ومواقفها المشهورة فأصبحت معنى واحداً في نفس حافظ.

ثالثاً: لهذا الشاعر ميزة ليست في شعر غيره، ذلك أنه لا ينظم قصيدة لغرض من الأغراض إلا وفاه شرحاً وإيضاحاً وبياناً. كأن القصيدة موضوع درس على المدرس أن يشرحه في حصة، أو مقالة صحفية تلم بأطراف الموضوع إلاماً شديداً؛ فهو شاعر مصور لكل ما يدور في خلد السامعين من معان، فإذا خلق في سماء الخيال وقف عند التشبيهات المفردة، وإذا هم أن يغوص في بحور الشعر للبحث عن لآله أدرك أنفاسه البهز فتعلق ببعض اللآلى التي تعجب العامة ويمر بها الخاصة سريعاً ثم يخرج اللؤلؤ من أصدافه في ثوب براق وحلية خلافة، ذلك لأنه شاعر صناع يجيد السبك ويحسن الضرب بالصنع وهو شاعر الجماهير يستهويها بما تشتاق إلى سماعه من ذكر آلامها وآمالها.

رابعاً: لكل شاعر أو كاتب طابع خاص يسرى في النثر والشعر، وأسلوب وطريقة للتفكير يعرفها من عانى قراءة مستمرة لأصناف خاصة من الكتاب أو الشعراء، فيستطيع القارىء أن يخبر صادقاً أن هذه القطعة لفلان من غير أن يعرف اسمه قبل ذلك بذيل المقالة أو القصيدة، وذلك ناتج من كثرة القراءة

والاشتغال بالأدب . حدثني صديق أنه كان يقرأ مقالات المنفلوطي السياسية فيعرف شخصه من أسلوبه ، وأنه قد يقرأ مقالات الرافعي أو شعر الجارم فيمر بذهنه قبل كل شيء طابعهما الذي لن ينزلا عن مستواه ؛ أما حافظ إبراهيم فقد شد عن هذه القاعدة ، فقد تقرأ له شعراً على المعنى جزل الأسلوب ، ثم تقرأ له شعراً آخر فتستريح لنفسك أن تنسبه لأي شاعر خط قصيدة في صحيفة سيارة ، فبينما شعر حافظ يرتفع إلى سماء الأدب ، إذا به يتهاوى في مزلقه ، وخاصة في المدح والثناء حينما يطلب منه ذلك فيخجل أن يرد صديقا ؛ وبهذا فقد شعره وحدة التناسق واشتراك الأساليب في كثير من قصائده . سأله محرر الهلال عن ذلك فقال : « الجمهور يلومنا على أن لنا كثيرا من الشعر التجاري ، ولكن الجمهور نفسه هو الذي يطلب منا ذلك ، ولو تركونا لعفوا أنفسنا لأحسننا ، ولكنهم يلحون علينا في التهاوى والمرأى والمدائح ؛ ثم ينتقدوننا على أننا نطيعهم ، وكان يجب أن يراعوا هذه الظروف ، وسأطبع ديواني بعد أن أظهره من الشعر التجاري » .

خامساً : كان حافظ في مدحه كأنه مثال ماهر كلف بصنع تمثال بحجم الممدوح ؛ فإن كان عظيماً ذا مكر اجتماعي خطير كالخديو عباس أو الشيخ محمد عبده ، كدق رhythme وأحسن الرصف والوصف وأبرز مواضع العظمة في ممدوحه ، وبخاصة إن كان من السياسيين الذين يحملون أوزار الأمة على عواتقهم ؛ إذ كان حافظ كثير السباحة في خضم السياسة ، معنياً بشئون الأمة ؛ وإن كان عيناً من أعيان الريف يستطيع حافظ ألوان الطعام على مائدته ، كافأه على كرمه بمدحه بالكرم وقرى الضيفان ، وقد يغالى في ذلك مغالاة تعجب صاحب الخوان ؛ وإن كان صديقاً مؤنساً تراخت أعصاب حافظ في مدحه وفقد شعره قوته وتحول الشعر من المدح إلى رقة إخوان الصفاء ووصف مؤانستهم وكفى .

نشأ حافظ إبراهيم مشغولاً بالأدب متطلعاً إلى الشهرة ، وكان أقصى منى الأديب في تلك الآونة أن يتعلق بكبير من الكبراء يقدر أدبه ويحميه من نوائب

الحدثان ، فلما عاد من السودان وكانت له مكاتبات سابقة للشيخ محمد عبده ، لزم مجلسه ورأى في الشيخ كرم النفس وعلو الهمة وعطفاً أغناه عن عطف الآباء والأقربين . رأى مجلس الاستاذ الامام حافظاً بالعظماء وأعيان مصر وكلهم عرف هذا الشاب الفكه الشاعر الراوية ، ورأى في إكرامه متاعاً بحسن استماع الأدب المصنعي وإرضاء للشيخ عبده ، لأن الشيخ الامام كان موره محدوداً وبساطه ممدوداً ، فظهر اسم حافظ في الأوساط الأدبية ، وكان شعره قليلاً ظاهر التكلف ، فاستفاد من صحة الشيخ قوة الديباجة ورصانة الأسلوب ، وكان الشيخ كما قال عنه حافظ : « يعرف مهر الكلام ومقدار كد الأفهام » ، وأغرى الأدباء حافظاً أن يمدح الخديو عباساً عله يتعطف عليه بوظيفة ، ولكن دون ذلك مشقات ، إذ كان شوقي شاعر الحضرة الخديوية ، وهو نخل قدير لن يبلغ حافظ مبلغه مهما يكن من قوة البيان ، ولأن المنافسة في هذا الميدان لا يرضاها شوقي ، فصار من دأب حافظ أن يمدح الخديو ويتلطف بمدح شوقي ويحتس من مظنة المنافسة ، وكذلك نجد قصائده في الجزء الأول من ديوانه على هذا الطراز : تقرب من الخديو ورعب من شوقي وتزلف إليه ، كما قال في احتفال بعيد الجلوس :

أرى أريكة عباس تحف بها وقاية الله والإقبال والجاه
قل للآلى جعلوا للشعر جائزة فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
لم أخش من أحد في الشعر يسبقني إلا قى ماله في السبق إلاه
ذاك الذي حكمت فينا براعته وأكرم الله والعباس مثواه

ظل حافظ يركع على عتبات شوقي رجاء أن يميل إليه قلب الخديو بدون جدوى ، ولكن حافظاً بعد سنة ١٩٠١ استفحل شعره وتعلق الشعب به لسهولة مع غموض شعر شوقي في بعض الأحيان . لقد قوى شعر حافظ وتماسكت قوافيه بعد طبع الجزء الأول ، وأصبح لحافظ جمهور من الأدباء يوازن بين شعره وشعر شوقي ، وصارت الجرائد تنعى بالشاعرين ؛ فاللصيقة بالخديو تدعو لشوقي وغيرها تدعو لحافظ وتشجعه . إذا فلينبذ حافظ لشوقي على سواء ، وليبارزه في ميدان الأدب ، وليزاحمه في مدح الخديو علانية ؛ وكان حافظ في الجزء الأول مقيداً بتقليد

الأقدمين ، فعلته معاناة الشعر ومخالطة كبار الأدباء حسن التصرف وإدخال عناصر التجديد في الأساليب والمعاني ؛ وقد لقي من الشعب إعجاباً أطار من قلبه الخوف من شوقي ، وتفق ذهنه عن المعاني الخصة والأساليب الجذابة والصراحة فيما يقصد إليه والسلامة من الالتواء الذي قد يضل بعض الشعراء ؛ نرى ذلك واضحاً في الآيات الآتية في أحد أعياد الخديو :

طف بالآريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن داني
يا عيد ، ليت الذي أولاك نعمته بقرب صاحب مصر ، كان أولاني
أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
هذا هو الملك فليهنأ بملكه وذا هو الشعر فلتنشده أزمان
أرأيت أن حافظاً أصاب شوقياً في الصميم ؟ فعاب شعره وهزأ باستفتاح قصائده في مدح الأمير بالغزل ووصف الخمر ، عابه بنضوب القريحة وقلة الذوق ، وذكر أنه أحق بلقب شاعر الأمير

وفي الحق أن الدوي الذي كان يلقاه شعر حافظ كان يغريه بذلك . كان نفس حافظ قصيراً في أول الأمر ، ثم طال وشغل بالحوادث السياسية وشعر الوطنية عن مدح الخديو إذ وجد نفسه تنفخ في غير نار وقد سد عليه شوقي الرحاب . ولكن هناك مواقف يفقد فيها حافظ ويعاب عليه أن يستأثر شوقي بحلبة الشعر ، فلا بد من القول ولا بد من التبريز .

من ذلك حجج الخديو فقد أبدع شوقي ما شاء له الإبداع بمختلف القصائد ، فلا بد أن يمثل حافظ . بين يدي الأمير ويلقى قصيدته البارعة في حضرته ويعجز شوقياً أيضاً ، ومنها :

متى نلتها يا لباس المجد معلماً أدنيا وديناً ؟ زادك الله أنعماً
قلله ما أبهاك في مصر حالياً والله ما أتناك في البيت محرماً
أقول وقد شاهدت ركبك مشرقاً وقد يمم البيت العتيق المحرماً :
مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى يفيض جلال الملك والدين منهما

ولو أتى خيرت لاخترت أن أرى لعيسك وحدي حاديا مترغا
وكان من الواجب على حافظ إذ يمدح ولي نعمته والآخذ بيده إلى سلم المجد
أن يمدح في مدح الشيخ محمد عبده على قدر جهده . ثم لما اتسع أفقه الشعرى أجاد
ما شاء في مدح أستاذه ، وجعل شعره صحيفة سيارة تدافع عن الشيخ وترد كيد
خصومه الذين اتخذوا الصحف وسيلة لتقده والزراية عليه ؛ ومن أروع شعره في
مدحه قوله قصيدة تفيض إخلاصاً وحسن إبداع وفيها خيال قوى ، حين عودة
الإمام من سياحته في الجزائر :

خشع البحر إذ ركبت جواريه خشوع القلوب يوم الحساب
وضياء الإمام يوضح للربان سبل النجاة فوق العباب
وسرى البرق للجزائر بالبشرى بقرب المطهر الآواب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا يرقبون الإمام فوق السحاب
ومن قوله في صدهجمات الجرائد على الشيخ :

سخرُوا من الفضل الذي أوتيته والله يسخر منهم في النار
لا تجزعن فلست أول ماجد كذبت عليه صحائف الفجار
ومن لهم الفضل في تكوين حافظ وتشجيعه ، الشاعر الفحل محمود باشا
البارودي . كان البارودي المثل الأعلى لشعراء عصره ، وكان حافظ حريصاً أن
يتخذنه أستاذاً ويقلده في شعره . ومن الهين على حافظ أن يمدح الخديو أو الشيخ
عبده أو غيرهما أما أن يبيع التمر إلى هجر ، فلا بد من كد القريحة حتى يرضى
سيد الشعراء عن شعره ، وإنما يدرك أغوار الشعر من دفع إلى مضايقه ، ويعرف
قيمة النقد الصياغة ، أما غيرهم فيتفاوت حكمهم عليه بتفاوت ثقافتهم وأمزجتهم .
لذلك تجد حافظاً حين يمدح البارودي ينسج على منواله ، ومع أنه ليس شاعراً
غزلاً فقد ابتدأ شعره إليه بالغزل ، وحاول أن يظهر بالبطولة والفروسية كما كان
يفعل البارودي ، إذ كان نمطاً من هذا النمط . وبأى شيء يمدح حافظ سيد الشعراء
وكبيرهم؟ حافظ - كما قلت - بارع في تفصيل القصيدة على قدر ممدوحه ، وأنه كزهير
لا يمدح الرجل إلا بما فيه . إنه يمدح البارودي بأحب الأشياء لديه وسلوته بعد
أن طحنه الزمان . ذلك أنه شاعر عظيم

سلبت بحار الأرض در كنوزها فأمست بحار الشعر للدردوردا
 وجئت بأبيات من الشعر فصلت إذا ما تلوها ألقى الناس سجدا
 وفي أول هذا القرن نشطت الدعوة السياسية للحكومة العثمانية ، لأنها دولة
 الخلافة الإسلامية ، وملجأ المصريين في الشدائد ، فاتجه شطر من السياسة المصرية
 إلى تركيا ، وكان من الواجب أن تحتفل مصر بالاعيد العثمانية ، وأن ينظم الشعراء
 في ذلك ؛ وشعر حافظ في هذا الباب ضخيم الأسلوب لكنه ضعيف الروح .
 وهناك ناحية بارزة في حافظ بالرغم من كل شيء ، هي إعجابه بشوقي إعجابا ملك عليه
 حواسه ، فهو معترف له أولا وآخر بالسبق والغلب ، وله في مدحه قصيدة أشبه
 بالمعلقات أنشدها في مهرجان شوقي وتعد من أبرع شعره ، ومنها :

أمير القوافي ، قد أنتت مباحيا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
 ولا أجد في تقدير حافظ أبلغ من رثاء شوقي إياه :

وغدا سيزكرك الزمان ولم يزل في الناس إنصاف وحسن جزاء
 خلقت في الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء

وكان المهرجان الذي أقيم لحافظ في الأسبوع الثاني من شهر مارس سنة ١٩٣٧
 في (دار الأبرار) الملكية صدى لدعوة شوقي

مسنين مسن مخوف